المعجم الشعري واللغوي في الشعر الشعبي
Poetic and Linguistic Lexicon in Popular Poetry

د. مومن مزوري

جامعة طاهري محمد بشار

m.mazouri@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2018/10/19	تاريخ القبول: 2019/01/29	تاريخ النشر: 2019/02/10

ملخص البحث

اللغة بكل جمالياتها الفنية والصوتية والدلالية مادة أساسية لكل بناء شعري، وهي أداة لعرض كل تجربة في أقوم شكل وأحسن مضمون. ولها مستويات لا تزال تستقطب اهتمام الباحثين كمصدر للدراسة العملية من الوجهتين التاريخية والعلمية. واللغة العربية انتقلت في الربع الأول من القرن العشرينتقلة عملاقة إلى التعبير العصري السهل. وهذه النقلة هي التي مهدت لخطوات أخرى أعقبتها، منها ميل بعض الشعراء والكتاب إلى استعمال اللغة العامية في أعمالهم الأدبية. وبهذا تكونت اللغة البسيطة التقريرية والتصويرية للمحيط، ومن هذا الوضع استمدت لغة العامة بساطتها وتقريريتها.كما أن المعجم الشعري في الشعر الشعبي تميز بالفطرية وبنوع من البساطة الطبيعية البعيدة عن الغرابة والتعقيد.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الشعر، التركيب، المعجم الشعري، الشعر الشعبي.

Abstract:

The language, in all its artistic, phonetic and semantic beauty is a material for any poetic composition and a tool for presenting the form and content of any experience. It contains levels that remain important for many researchers as a source of both historical and scientific studies. Also the poetic lexicon in popular poetry has been characterized by its innate aspects and certain natural simplicity taking its distance from all strangeness and all complexity.

Key words: language, poetry, structure, poetic lexicon, popular poetry.

I تمهيد

إن الأدب الشعبي جزء أساسي من التراث الجزائري الضارب في جذور التاريخ والمتنوع بأشكاله المادية واللامادية، ومنه الشعر الملحون كإبداع فني متصل الرباط بالزجل الأندلسي في بعض موضوعاته ولغته الشعبية وفي بعض إيقاعاته وفي تناوله للواقع المعيش عظمت قضاياه أم كانت بسيطة. لهذا فإنه يستحيل أن نبني أدبا جزائريا أصيلا ومؤسسا على رؤية فلسفية اختصت بها الذات الجزائرية منذ القدم دون المرور على الشعر الشعبي، لأنه يشكل القاعدة الصلبة للذات الجزائرية. على هذا الأساس أصبحت الدراسة في حقل الثقافات الشعبية عموما تمثل بعدا استراتيجيا له أهميته وفوائده على أصعدة متعددة آثرنا أن نتناول منها جانبا واحدا يتمثل في طبيعة لغة الشعر الشعبي.

II لغة الشعر الشعبي

قبل أن نلج موضوع الشعر الشعبي كفن أدبي يدخل سقف الشعر عموما، فإنه من الأجدى أن نطرق موضوع اللغة التي يؤدى بها هذا النوع من الشعر، فهي أداته في الأداء، ووسيلته في توصيل المعاني وعرض الأفكار وصنع القوافي والأوزان.

فاللغة وسيلة العمل الفني الأدبي، وبدونها لا يمكن أن يكتمل شكله مهما علا شأن موضوعه فكرة ومضمونا، ولذلك قال عنها عز الدين إسماعيل: «اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير. هي أول شيء يصادفنا، وهي النافذة التي من خلالها نطل، ومن خلالها نتنسّم، هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق.[1] »

وحتى إن كان الخلاف بيِّنا بين الأدباء والنقاد إذ يقف البعض منهم عند مجرد اعتبار اللغة وسيلة لا تسمو إلى درجة الغاية، ويعلي البعض الآخر من شأنها ويرفعها إلى مستوى الغاية، فإن اللغة تبقى محافظة على أهميتها في الخطاب الأدبي عموما، وتزداد تلك الأهمية لما يكون ذلك الخطاب شعريا، حتى وإن كان ذلك الشعر بلغة العامة.

لا يشك أحد في أن لغة الشعر الشعبي ترتبط بالبيئة التي نشأ فيها، سواء في جانبها الجغرافي المكون لحيز مكاني يشتمل على انسجام بيّن في مجموعة من الصفات والتراكيب والأداء

لمجموعة من الناس. أو في الجانب الزماني الذي يمثل مرحلة من مراحل التطور الحاصل في مسار اللغة بين أفرادها وفق مكوناتهم المعرفية والثقافية.

إن لغة الشعر الشعبي عامية، ولذلك فهي تمثل لهجة عامية شديدة الوثاق بالزمان والمكان لقوم ليسوا إلا عربا. وهذه العامية في كل البلاد العربية لن تكف عن التزود من قاموس اللغة الفصيحة، كما أن اللغة العربية الفصيحة، لن تكف هي بدورها أيضا عن التأثر بجو العامية وأساليبها، في خضم المد والجزر القائم بينهما عبر عجلة التاريخ، وظروف المجتمعات العربية سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا. ومع ذلك فإن عوامل التاريخ العميقة ستتكفل بمعالجة أهم التناقضات التي تنشأ بين اللغة الفصيحة واللهجات العامية، سواء في قواعد الكلام أو في طرائق الأداء الفني للكلام كتابة وقولا بوجه عام[2].

فلغة الشعر الشعبي التي نصفها بالعامية، لم تسقط من السماء ولا ولدت من الأرض، وإنما هي صفة أو حالة للغة العربية الفصيحة في حالة مرضية لها ظروفها وأسبابها التي أنتجتها، فانبثقت عنهما هوة من المسافة قد تصغر أو تكبر، حسب الظروف المحيطة بالوضع العام للمجتمع عموما وعلى كافة الأصعدة. واللغة العربية الفصيحة –كما يقر بذلك الجميع– من جملة ما تتميز به الثبات في قواعدها والحفاظ على زخم هائل من المفردات يمثل ميراثا لغويا تشكل منه المعجم اللغوي العربي. ولكنها رغم ذلك شديدة المرونة في الأداء الفني. ولذلك نجدها إلى اليوم تخدم بنفس قواعدها وكلماتها العريقة، أغراضا فنية لم تكن تخدمها في الماضي. فهي لغة حية مطواع قادرة على خدمة مجتمعات متعاقبة، من عصر جامعي الغذاء البدائيين في الصحارى، إلى عصر العبودية، فعصر الإقطاع، ثم رأس المال فالاشتراكية، فعصر العولمة الكاسح.

فاللغة العربية الفصحى ليست كتلك اللغات القديمة التي تفرعت إلى لهجات عامية ثم انتهى بها الأمر إلى انتصار تلك اللهجات عليها وإزاحتها من ساحة الميدان. فما تتميز به من مرونة هو الذي يتيح لها لقاء مثمرا مع اللهجات العامية التي تفرعت منها في عصور التخلف والتدهور القومي العام. ذلك أن اللهجة العامية في كل بلد عربي ليست لغة مستقلة بذاتها تملك من دعائم ومقومات اللغة ما يضمن لها النجاح والاستمرار. وإنما هي فرع لغوي متحرك دائما، متغير بلا انقطاع، يستعجم في عهود الانحطاط القومي والاجتماعي ويستعرب

في عهود الصعود القومي والاجتماعي أيضا. وتضييق فجوة الهوة بين الحالتين يبقى رهن حالة المجتمعات العربية، إذ تضيق المسافة بين الفصحى والعامية بصعود القومية العربية وتطور الوضع العلمي والثقافي والاجتماعي إلى حد تصبح فيه العربية الفصيحة سيدة الموقف أو يحصل بينهما اللقاء المنشود أو تحصر العامية في نطاق ضيق.

إن التقاء العامية بالعربية الفصيحة في الشعر الشعبي لم يعد يحتاج إلى إظهار وتوضيح، فكثير من الشعراء الشعبيين يقتربون اليوم بأزجالهم من اللغة الفصيحة. وليس مرد ذلك لكونهم في الأصل شعراء فصحاء ومتمكنون بدرجات متفاوتة من الفصاحة من أمثال أحمد شوقي وإسماعيل صبري وقبلهم بكثير في أيام الزجل الأولى . وهو أصل كل شعر شعبي . مع إمام الزجالين ابن قزمان في الأندلس موطن الزجل وولادته، بل ممن دونهم فصاحة واقتدارا في الفصحى، وقد غصت بهم القنوات الفضائية والإذاعات في كل من الخليج والمغرب العربي، حتى عاد التقريب بين العامية والعربية الفصيحة ليس مجرد محاولات فردية معزولة، وإنما اتجاها شاملا وواقعيا يحمل أسباب بقائه ونمائه.

III المعجم الشعري

وإذا أردنا أن نتحدث عن المعجم الشعري الذي يميز لغة الشعر الشعبي، فإنه من الضروري أن ندرك مفهومه من خلال من عرفوه من النقاد والباحثين في حقل الأدب الواسع.

يُعرف المعجم الشعري أيضا بالقاموس الشعري POETIC DICTIONARY، وهو مصطلح قديم يطلق عادة عند الغربيين على الصناعة اللفظية الغربية، التي شاعت في القرن الثالث عشر الميلادي حين كانت الكلمات المألوفة الاستعمال تستبدل بها كلمات أخرى يقتصر استعمالها على الشعر، كاستعمال كلمة (صبا) بدل كلمة (نسيم)[3]. فهو في هذا المعنى يختص بالألفاظ المتداولة شعريا، دون الاستعمالات الأدبية والفنية الأخرى. وبهذا تكون للغة الشعر خصوصيات تهدف إلى جعلها أسمى من اللغة المتداولة.

وقد توصل المهتمون بالمعجم الشعري العربي إلى وضع تعريفات عديدة له منها: أنه «ذلك الرصيد الضخم من الألفاظ التي يستخدمها الشعراء الأقدمون، والكلاسيكيون من الشعراء في العصر الحديث كل في غرضه ومقصده[4].» كما نجد تعريفا آخر أكثر حداثة جاء فيه: «فالمعجم الشعري عند شعراء المدرسة الحديثة هو ذلك الرصيد الضخم من الكلمات

الشعرية مما سلس لفظه، وعذب معناه، وألفاظ السابقين ومما تحتاجه لغة الشعر من الألفاظ العصرية، كي يؤدي الشعر رسالته كاملة في الحياة[5].»

فالمعجم الشعري إذن هو مجموع الألفاظ والمفردات المتداولة عند شعراء العصر الواحد لا يعدو أن يكون هذا المجموع أصلا من الموروث اللغوي ولو بنسبة معينة، ولأن الاستعانة بالموروث الأصيل شرط هام للحفاظ على عملية التواصل الحضري بين القديم والمعاصر. فبنت الشاطئ على حق حينما رأت «أن الأديب الذي يفقد اتصاله بماضي أمته لا يصلح بحال من الأحوال أن يعبر عن وجدانها المعاصر[6].»

وعلى ضوء هذه التعريفات، أخلص إلى القول بأن الشعر الشعبي ليس بدعا ولا في معزل عن هذا التنظير. فهو قد أفاد من اللغة العربية كما وصلت إليه بتطوراتها الحاصلة عبر جميع عصور تطور الأدب العربي. كما أن شعراءه كان لهم من حدة الذكاء ورهافة الحس ما جعلهم يتفننون في اقتناء ألفاظ بعينها وتطوير أخرى، مما كان له من السلاسة والعذوبة وروعة المعنى وجرس الحروف. كما لم يكونوا في معزل عن مجتمعهم أو في هجر لعالمهم أو بعد عن بيئتهم.

بل على العكس من ذلك، فقد لازموا بيآتهم وإن هجرها الآخرون، واختلطوا بمجتمعاتهم على اختلاف أجناسها وإن ترفع عنها الآخرون، وأدركوا ما حصل من تطور في عجلة الحياة سواء أكانوا عربا قدموا من المشرق أو أمازيغ يقطنون شمال إفريقيا. ومن هذا كله اكتسب قاموسهم الشعري شرعية التواجد وأحقية الاعتراف به في عالم الأدب ودائرة الإبداع.

ونحن إذا ما حاولنا وصف هذا المعجم الشعري الذي تميز به الشعر الشعبي في ظروفه الزمنية التي ولدت فيها نصوصه، ألفيت أنه من العسير الوقوف على خصائصه ومميزاته، حتى وإن وصف السحرتي اللفظ بقوله: «عنصر على جانب كبير من الأهمية وقد يقوم به القصيد دون حاجة إلى صور خيالية وموسيقى جياشة، فإن الألفاظ وصوتها ودلالتها وجوها وتألقها كافية لإبداع القصيد البديع... والحق أن القصيد يمتاز بقوة الكلمة وشعريتها وحلاوتها ونعومتها أو إيحائها، وغاية الشعر السامية لا تخدم بالكلمات الوعرة الجافة التي تشبه الأشخاص المتعبين[7].»

ولما كان هذا كله لا يفي بالغرض في هذه الإشكالية، فإني أحاول تصور مواصفات بعينها لهذا المعجم، انطلاقا مما وُصف به من لدن الأدباء والدارسين للأدب العربي قديمه وحديثه، ومن هذه المواصفات:

اللغة الشاعرة التي تربط الشعراء القدامى والمحدثين بالمعاصرين لغة واحدة في مهدها، وقاموسها متقارب متجانس في هدفه متباعد في صوره وتراكيبه، فليست الإشكالية في اللفظ وإنما في التركيب اللغوي الذي يجب أن يساير عصره، ويعايش بيئته ويتكيف مع ما تتميز به من خصوصيات، أو كما قال عز الدين منصور: «لا تكون اللغة شعرية بحق إلا عندما تكون نابضة بروح العصر... إن استكشاف لغة جديدة للعصر تكاد تكون خلقا لهذه اللغة[8].» وإلى هذا ذهب ريتشاردز في كتابه "العلم والشعر" حيث قال: «إن أهم ما يمتاز به الشعراء هو سيطرتهم على الألفاظ سيطرة تدعو إلى الدهشة... إن كمية الألفاظ التي في متناول الشاعر لا تحدد منزلته بين الشعراء وإنما يحدد مكانته الطريقة التي يستخدم بها هذه الألفاظ[9].»

أثرى الشعراء المعاصرون رصيدهم اللغوي بمصطلحات متعددة ومتنوعة، وألفاظ علمية جديدة، وكلمات لها صلة وثيقة بحياة المجتمع اليومية وتعاملاته المختلفة.

نزل بعض الشعراء من أمثال أحمد زكي أبو شادي باللغة الشعرية من برجها العالي الذي فرض عليها زمنا من الدهر، إلى الحضيض الأسفل من مثل استعمالهم للعامية حينا، ولألفاظ أجنبية غريبة عن الفصحى أحيانا أخرى.

بعد هذا العرض يجدر بي أن أطرح السؤال التالي: ما حظ الشعر الشعبي من كل هذه المواصفات؟ وهل كانت له خصوصيات في هذا الميدان؟

و هنا يمكنني أن أجيب بالقول أنه بعد عملية استقراء وتفحص في المعجم الشعري لهذا النوع من الشعر، وجدت أن الشاعر الشعبي لم تفته تلك المعطيات ولم يكن من الغافلين عن هذه القضية وعن هذا الموضوع. فهو قد استطاع أن يوظف ألفاظا وتعابير مستمدة من الطبيعتين: الداخلية والخارجية، ممزوجة بقوة انفعالية وعاطفية، معبرة عن الحالة النفسية للشاعر. كما تمكن بطبيعته الفطرية من الانتقاء من اللفظ «ما خف جرسه على السمع، ووصل تأثيره إلى القلب، فتجيد تنسيقه وتعلقه مرة بعد أخرى حتى إذا سمعته رأيت فيه قوة جاذبة وحسنا شائقا يدفعك إلى الإصغاء[10].»

و قد كان هذا الشاعر الشعبي ناجحا أيضا في إدراك دوره ومعرفة الرسالة المنوط بها. فكان أكثر التصاقا بمجتمعه، وأقرب إلى بيئته مما أعطاه القدرة على فهم طبيعة أساليب الحديث فيها، وطرق التخاطب بين أهلها، وما يستحببونه من ألفاظها وعباراتها، وما يستكرهونه من صيغ التعبير والكلام.

وفوق هذا وذاك، فقد تحقق للشعر الشعبي – إلى حد بعيد– أن تساير لغته حركة التطور العامة، والتي عجز الشعر الفصيح عن بلوغها أو تحقيقها في بعض مجالات الحياة اليومية. وكان أكثر التصاقا بواقعه فكرا وتصورا، وحياة ومعاناة أكثر من الواقعيين أنفسهم، وحقق قبلهم ما يرون من ضرورة تبسيط اللغة الشعرية إلى درجة فهم العامة من الناس. ألم يقل أحدهم: «إذا كان الشعر تعبيرا عن تدفق العواطف والانفعالات، فإن اللغة التي تناسبه هي اللغة الطبيعية العادية، التي توجد على ألسنة الطبقات الدنيا وأهل الريف؟[11]» وللتمثيل على بساطة اللغة نعرض المقطع التالي من قصيدة للشيخ علي بلعيد البشّاري[12] والتي يتناول فيها موضوعا بسيطا كبساطة لغته وهو المرآة إذ يقول:

المرَايَة يَا فُـلَانْ صَانَعْـهَا إِنْسَـانْ مَنْ قَدِيمْ الزَّمَـانْ مَا زَالَتْ حَيَّة
دَخْلَتْ عَنْدْ الضْعِيفْ وَقْوِي وَالسُّلْطَانْ تَسْكَنْ فِي كُـلْ بَيْتْ مَا دَامْ الدُّنْيَا
سَرَّكْ عَجِيـبْ يَا مْرَايَـة فِيَ البُلْدَانْ حَارَتْ فِيهَا العْقُولْ حَاكَمْ وَرْعِيَة
مَا جِيتِي جِـنٌّ خَايْفَة شَرٌّ وْالَابْدَانْ مَا جِيتِي إِنْسْ دَارْ حَسْنَة والسَّيَّة
مَا جِيتِي مَاشْيَـة نْقُولُو ذَا حَيْـوَانْ مَا جِيتِي زَاحْفَـة بْسَمَّكْ مَسْقِيَة
مَا جِيتِي مَنْ الطَّيْرْ بَالرِّيشْ وْجَنْحَانْ شَـاقْ لَلرِّيحْ وَالسْمَا لِيهْ مْطِيَة
مَا جِيتِي مَنْ الْبَحْرْ وحْقُولْ المرْجَانْ مَا جِيتِي خَلْقْ مَا يْنَعْرَفْ بَسْمِيَة
مَا جِيتِي مَنْ نَبَاتْ بَالْوَرْقْ وْالَاغْصَانْ مَـا جِيتِي فَاكْيَة تْنَقْطَفْ فَصْلِيَة

هكذا يكون هذا النوع من الشعر قد حقق فكرة أن تيار الشعر ملازم لفكر وحضارة كل مجتمع من المجتمعات العربية عبر العصور السالفة، وفي البيئة التي ولد فيها أو نشأ فيها. لكنه وفي خضم تلك البساطة اللامتناهية في الاستعمالات العامية للألفاظ، أو استخدام ألفاظ عامية وضعا ودلالة، فقد طعّم شعراؤه قاموسهم اللغوي ببعض الألفاظ الأجنبية التي فرضتها ضرورة التعاملات المختلفة في بيئة كانت مسرحا للامتزاج الثقافي والحضاري عبر عصور طويلة.

ومن ذلك استخدامهم لبعض المفردات الفرنسية التي فرضتها أيام الوجود الاستعماري، ومن ذلك ما جاء في هذه المقطوعة الشعرية للشيخ جماعي امحمد المنيعي[13] إذ يقول:

غَـادِي نْعِيـدْ لِكُمْ قَصَّة وَاللِّي خْفِيـفْ لَازَمْ يَرْسَى
وَمْعَ فْرَنْسَا الْمَنْدُوسَة وَاللِّي يْخَالْفُوا الَادْيَـانْ
ذَاكْ النْهَـارْ لَمُّوا الْغَاشِي طَارْ الصْحِيحْ وَبْقَى الزَّاشِي
الآخُرْ فَ السْلُوكْ **مْطَاشِي** مَكْرُوسْ فِي **جْوَا** الْحِيطَانْ

والمفردات الفرنسية هي:

مْطَاشِي: من الفعل الفرنسي attacher بمعنى يربط ويثبت. وفي البيت بمعنى مربوط

جْوَا: من الكلمة الفرنسية joint بمعنى المفصل والوصلة

أما الفصيح من الألفاظ، فلم يهجروه أبدا، وإن كان يحلو للكثير أن يتهموهم بذلك. بل لقد حافظوا على زخم هائل من الألفاظ الفصيحة الجزلة، الممتدة في جذور تاريخ اللغة العربية. وهذا ما لم يفعله بعض المتطفلين على الشعر الفصيح في العصر الحديث، بل وفي أيامنا هذه. واستعملوها استعمالات حسنة أحيانا، وبانحراف دلالي أحيانا أخرى. ولننظر إلى القصيدة التالية للشاعر علي بلعيد يتناول فيها موضوعا غزليا ويصف محبوبته بكلمات ضاربة في جذور الفصاحة إذ يقول:

بِيَ لَبْلَـجْ دَامْـسْ الْغْنُـجْ تَوْصَافْ المِرَادْ بَيْـنْ لَفْيَافِي فَالِي
زَيْـنْ مْبَهَّجْ حَـاطْ الطْهَجْ يَوْمْ يخْرْجُوا الْغِيدْ شَانْهَا عَنْهُمْ غَالِي
قَنْدِيلْ اوْهَجْ بَاتْ فِي حْرَجْ بَيْنْ سْرَاجَمْ فِي فْنَارْ ضَوَّى لَعْلَالِي
وَلَّا كَنْزْ دَارَةْ الْبْدَرْ

ولننظر إلى معاني هذه الكلمات كما وردت في معجم لسان العرب:

لَبْلَجْ: الأبلج هو المتباعد ما بين الحاجبين

دَامْسْ: دامس، يقال ليل دامس إذا اشتد وأظلم. وفي البيت شديد سواد العينين

الغنج: ملاحة العينين

الفيافي: الصحراء الملساء، وتعني أيضا أراضي الصحراء المنعدمة الماء

فالي: الفالي المنقطع

وإذا انتقلنا إلى الشاعر جلجلي جلول[14] نلمس أيضا حضور المعجم الشعري من خلال ما استخدمه هذا الشاعر من مفردات لها حمولات دلالية تشارك في صناعة المعاني العامة، وتضفي على النص حضور التجربة الشعرية محيطة بها إحاطة كاملة ومستجلية الجو النفسي والاجتماعي للشاعر في بؤرة الأداء الشعري. وها هو يقول في المقطع التالي يذكر ساعة موته وحال زوجته من بعده:

وْسَهَّلْ رَبِّي خَـفّْ الموْتْ عْلِيَ   وْخَرْجَتْ رُوحِي مْنَ الصْدَرْ كِي خَيْطْ غْيَامْ
وأمْ اوْلَادي رْغَاتْ في وَذْني لِيَ   وكْثَـــرْ رْغَــاهَا يَاكْ فَتَّتْ لِي الَعْظَـــامْ
تَبْكي بَكْيْ اهْبَالْ وَاتْنُغْ عْلِيَ   ولَـوْ مَا شَــدُّوهَا نْـرُوحُو ڨـــاعْ تْـوَامْ
وْيَا خَــــدَّاعْ هْدِيتْنِي لَا مَنْ بِيَ   وَاشْ تْسَالْ خْلِيلْتَكْ فِي هَذَا الْعَامْ
وْيَا خَــدَّاعْ عْلَاهْ صَدَّيْتْ عْلِيَ   وْيَا خَـدَّاعْ عْلَاهْ تَهْدَى لي الَايْتَامْ
يَا زَهْــرَةْ قَلْــبِي وْقُــــرَّةْ عَيْنِيَ   وْيَا عَــــزّْ الْكَبْدَه وْيَا مِيرَةْ الَارْيَامْ
وْكُنْتِ كَالوَرْدَة فِيْ قَلْبِي غِي هِيَ   وكُنْتِ كَالقَمْرَه فِيْ لَيْلِي كِي يَظْلَامْ
كُنْتِ رَاحَـــةْ بَــالْ ورْكِيزَة لِيَ   وْكُنْتِ شَمْسْ رْبِيعْ كِي جَوِّي يَغْيَامْ
وْكُنْتِ مَا كُـنْتِ فِيْ ذَا الدُّنْيَا لِيَ   وْعُمْرْ اللِّي كُنْتِيهْ مَا يَكْفِيهْ كْـلَامْ

هكذا استطاع الشاعر جلجلي جلول أن ينجح في تحقيق معجم شعري حَسُنت مفرداته وعَذُبت معانيه.

IV المعجم اللغوي

تعد اللغة بكل جمالياتها الفنية والصوتية والدلالية مادة أساسية لكل بناء شعري، إضافة إلى كونها خاصية من أهم الخصائص التي أكرم بها الله تعالى الكائن البشري ليميزه عن باقي مخلوقاته. وهي أيضا أهم وسيلة تعبيرية يلجأ إليها الإنسان كلما رغب في الإفصاح عن بواطنه وقصد التعبير عما يختلج النفس من أحاسيس ومشاعر وعواطف وانفعالات. كما أنها أداة لعرض كل تجربة فنية في أقوم شكل وأحسن مضمون.

إن الإنسان بما أوتي من عقل وذكاء وفطنة، حرص على أن يهتم ويعتني بهذه الملكة منذ عصور خلت. وقد وقف على ذلك كل من أفلاطون وأرسطو الذي يرى بأن الكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة[15].

وما تزال مستويات هذه اللغة تستقطب اهتمام الباحثين، واعتُبرت مصدرا للدراسة العلمية من الوجهتين التاريخية والعلمية. وإن كان حظ اللغة العربية من ذلك غير وفير، ولكنه على الرغم من ذلك يعتبر أساس كل فهم للتطور اللغوي الحاصل في كيان اللغة ذاتها. وفي الشعر العربي المعاصر بشقيه الفصيح والعامي بصفته المستفيد الأول من هذا التطور. ونحن إذا ما تتبعنا مسار تطور اللغة العربية عبر عصورها الأدبية المختلفة، بما فيها العصر الأندلسي دون إغفال أو تهميش لشعر الموشحات والأزجال، ووقفنا على أهم التغيرات الطارئة عليها، وجدنا أن اللغة العربية انتقلت في الربع الأول من القرن العشرين نقلة عملاقة إلى التعبير العصري السهل. وهذه النقلة هي التي مهدت لخطوات أخرى أعقبتها، ومنها ميل بعض الشعراء والكتاب إلى استعمال اللغة العامية في أعمالهم الأدبية[16].

وللتمثيل يحسن بي أن أنتقل إلى الجنس الآخر وأثبت أن المرأة أيضا كان لها حضورها في هذا الميدان، وها هي الشاعرة جمعة لحسين[17] رغم أنها مثقفة ومتقاعدة من التعليم إلا أنها آثرت أن يكون إبداعها الشعري بالعامية ليسهل فهمه في الوسط الذي توجه له الرسالة. تقول في قصيدة بعنوان: اتصنت يا قلب

اتْصَنَّتْ يَا قَلْبْ لِيَ وَاسْتَعْقَلْ خَلِّيكْ مْنَ الهَايْـمَة لَا تَتْبَعْهَاشْ
اسْتَغْفَرْ مُولَاكْ بَعَّـدْ وَتْأَمَّلْ لَا تَغْوِيكْ بْزَيْنْهَا تَدِّيـكْ بْلَاشْ
مَكَّـارَة بَفْعَالْهَا شَيْنَـة تَتْمَلْ لَا تَتْبَعْ شَيْطَانْـهَا وَقْتَاكْ يَخْرَاشْ
ايَّامَكْ تَكْحَالْ فِيهَا تَتْبَهْدَلْ غَدَّارَة مَنْ شَـاوْهَا لَا تَامَنْهَاشْ
يَا غَافَلْ يَهْدِيكْ رَبِّي وَتْمَهَّلْ سَاعَفْنِي يَهْدِيكْ رَبِي مَا تَعْصَاشْ
تَبَّعْ حُكْمْ اللهْ فِي قَولَـهْ رَتَّلْ ذِي سُنَّـةْ حْبِيبْنَا لَا تَنْسَاهَاشْ

بهذا يكون هذا التطور قد تعدى الأدب الفصيح وقفز على عتبته ليغذي الأدب الشعبي بشيء منه بوصفه سليل الموشحات والأزجال، ولينال الشعر الملحون اليوم نصيبه منه. ولهذا كذلك اعتبرت الإبلاغية الحديثة أن التعبير اللغوي تميز في بداياته بالفطرية وبنوع من البساطة الطبيعية، التي تبتعد عن الغرابة والتعقيد. ذلك لأن التعبير اللغوي نفسه كان ثمرة وتتويجا لسعي الإنسان المتواصل إلى معرفة ما يدور حوله، ورغبته الجانحة في الاطلاع والمعرفة

واكتشاف ما يجدُّ من ظواهر وحركات في الطبيعة. وهكذا كان هذا المخلوق يبذل قصارى جهده لأجل إيجاد التعبير اللغوي الذي يمكنه من تملك المحيط. وفي الأخير استطاع ببدائيته تلك أن يوجد مجموعة من الإشارات، شكلت إلى بعضها البعض قاموسه اللغوي[18].

هكذا تكونت اللغة البسيطة التقريرية والتصويرية للمحيط. ومن هذا الوضع استمدت لغة العامة بساطتها وتقريريتها، في حين وجدت لغة ثانية أكثر ثراء وسموا وفنية مبتغاها، وهي لغة الأدب والشعر. وعنها يقول شايف عكاشة: «إن الأديب ما هو إلا عبقري لا يستطيع أن يعبر عن قصده باللغة التي اصطلح الناس على التعبير بها[19].»

لقد ربط بعض الباحثين تطور اللغة عند أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات بمكانتها العلمية ورقيها الحضاري. ورغم أن هذا أمر صحيح لا يختلف فيه اثنان، إلا أن البعض اعتبر بساطة اللغة سمة سلبية ودلالة من دلالات التخلف. بل لقد ذهب الأمر بعلي جواد الطاهر إلى اعتبارها من سمات المجتمعات المتخلفة، وذهب به الحد إلى نعتها بالبدائية، وهي ما سماها "اللغة الفطرية ذات المفردات والتراكيب المحدودة." ثم تنمو وتتعقد بنمو المجتمع وازدياد حضارته وتكاثر دواعيه إليها. ويجب في نظره أن تكون لغة الأديب والشاعر على مستوى عال من الغزارة والتعقيد، وهكذا يطلب منه أن يكون أعلى من المستويات اللغوية التي تحيط به[20].

غير أنه لابد أن أشير إلى أن المجتمع العربي عموما والمغاربي على وجه الخصوص، لم يكن بتلك الصفات الجنسية واللغوية التي تميز بها المجتمع العربي المشرقي في بيئته الأصلية، لاندماجه بالبربر في شمال إفريقيا، كما أنه عاش فترة زمنية . قد تقصر أو تطول . تحت سيطرة الاستعمار، مما جعل هذه الشعوب العربية تدخل سياج الأمية والجهل، وتبتعد عن لغتها بنسب متفاوتة حسب طبيعة كل استعمار ومدة بقائه على الأرض المستعمرة، مما أفرز لغة لها من بيئتها وجمهورها الكثير من الصفات، وولد مستوى لغويا لا يخرج عن هذا النطاق. وعليه فإن القضية إذن هي «قضية تقريب الفن من أذواق جمهور الشعب، وهذا تنقصه الثقافة العربية العالية. فمن الظلم أن نتركه في جهله وتأخره. والسبيل الوحيد لتثقيفه ورفع مستواه اللغوي والفكري، هو أن نخاطبه بلغته كلما دعت الضرورة إلى ذلك[21].»

وهذا ما فعلته الشاعرة جودي ذهيبة[22] في قصيدة من شعر الحكمة تتوجه بها إلى المجتمع في رسالة دينية تربوية بلغة سهلة وبسيطة يفهمها الجميع. وقد عنونتها بـ: العاصي، إذ تقول:

وَالعَاصِي مَذْمُومْ فِيَ الدُّنْيَا فَاشَلْ هَـاذْ الدّنْيَا الْغَارَّة رَاهَا تَلْهِيهْ
مَا أَدَّى صَلَاةْ عُمْرَهْ مَا قَبَّـــلْ وَابْلِيسْ الْمَلْعُونْ رَاهْ يَلْهِي فِيهْ
عَاشَقْ فِيَ الدُّنْيَا وَعْلِيهَا دَاهَـلْ نَاسِي حَـقْ اللهْ وَالدِّينْ مْتَلِّيهْ
نَفْسَهْ وَالشَّيْطَانْ وَالقَلْبْ الغَافَلْ وَالطَّبْعْ المَذْمُومْ زَادْ تْحَكَّمْ فِيهْ
مُورْ الدّنْيَا سَالْبَهْ حَالْ الجَاهَـلْ يَا وَيْحْ اللِّي رَاهْ جَهْلَهْ مْدَوِّيهْ
يَا عَاصِي مُولَاكْ اخْشَعْ وَتْذَلَّلْ أَرْجَعْ لَلْإِلَهْ وَارْكَعْ بَيْنْ يْدِيهْ

حقا إن لغة الشاعر لابد أن تسمو عن لغة العامة، وهذا لا يطلب من شاعر الفصحى فقط، بل إن الشاعر الشعبي معني بذلك هو أيضا. ولقد ألفيته على قدر مهم من الدراية بذلك، مدركا لهذه الخاصية ومتفهما لهذا الشرط من وجوب التميز، الذي يرفعه عن غيره في ميدان الفنية والإبداع. وقد كانت اللغة المتداولة أدبيا – وما زالت– بنسبة متكاملة مرصوصة، بحيث أن الألفاظ يأخذ بعضها برقاب بعض. وعليه فلا قيمة للفظ المفرد دون أن يقرن بلفظ آخر[23]. وبساطة اللغة ليست كما يتوهم البعض، فيظن أن هذا الاصطلاح ينطبق تماما على تلك اللغة التي لبس رداءها الأدب الشعبي عموما والشعر منه على وجه الخصوص. بل إن البساطة التي أجدها سلبية ويمكن لي أن أراها عيبا في ميدان النظم وقرض الشعر، هي ذلك الضعف المشين الذي يعتري التركيب البنائي للنص الشعري. وإلا فما فائدة حشد من الألفاظ الجزلة في تركيب صبياني؟

كما أن البدائية لا تعني إطلاقا القدم أو البداوة التي تخلص منها الشعر العربي المعاصر الفصيح إلى حد بعيد، والتي لا تزال من صفات الشعر الشعبي إلى حد ما. بل البدائية فيما أعتقد هي ذلك الضعف في القدرة على عرض الفكرة وتقديم المعنى المراد توصيله بما لا يثير الإعجاب لدى المتلقي. وهنا أشير إلى أن هذه الظاهرة المرضية لم يسلم منها الأدب الفصيح نفسه. وإلا فما نقول في كثير من الإنتاج الشعري الذي ولد في أعصر الضعف والانحطاط؟ بل وما نقول في بعض الشعر المتطفل على مائدة الأدب، والذي ينشر في الجرائد والمجلات في يومنا هذا؟

لقد أصبحت لغة الشعر العربي المعاصر، لغة لها من جمال الصوت وحسن التركيب ما شد انتباه النقاد والباحثين اليوم. فلم يزدها مر الأيام إلا رشاقة ونقاوة وحلاوة، بفضل حسن السبك وجودة الصياغة وفسحة الأداء.

واللغة العربية لغة حية لها عناصر عبقريتها، فلا يخفى على الأديب أو الشاعر أو الناقد من كنه أسرارها، لأن في كل ذلك إدراكا لأسرار الجمال الذي تؤديه[24]. لكن اللغة وكما هو معلوم، تتعرض على مر العصور والأزمنة لاضطرابات ومخاطر قد تهدد كيانها وتدنيها من الوفاة. وقد سبق أن أشار إلى ذلك حافظ إبراهيم في قصيدته "اللغة العربية". إنه جعلها تصارع حبا في البقاء، بل وطلبا للعلو. وفي رأي غنيمي هلال «احتفظت لغة الشعر على مر العصور بمقومات فنية لازالت تنمو بفضل عباقرة الشعراء والنقاد في مختلف الآداب[25].»

إن هذه العبقرية ليست حكرا على الشاعر الفصيح وحده، لا يشاركه فيها غيره، بل إن للشاعر الشعبي قسطا وافرا منها. فهو أيضا ابن بيئته، يسايرها ويواكب مستجداتها ويتطلع لكل ما فيه جدة وتغيير، حتى يرضي جمهوره هو أيضا.

نعم إن الشاعر الشعبي قد يكون أميا وهو تبعا لهذه الصفة التي قد تلازمه إلى يوم فراقه الحياة، لا يحسن تدوين ما ينظمه من الشعر. كما قد يكون، بل ويفترض في بعض الأحوال، أن يكون المتلقي أيضا لا يختلف عنه في جهله للكتابة[26]،- وإن استثنيت الشعراء الشعبيين المثقفين والمتعلمين- ورغم ذلك لم يمنعه هذا من تقييم نفسه وإنتاجه، لأنه يهمه أن يعرف إذا كان الشعر الذي أنتجه، بل وحتى الذي قدمه غيره من أمثاله لهذا المجتمع الذي ما هو إلا واحدا منه «قد عبر عن قضايا هذا المجتمع وعاش آلامه وأحزانه مثلما عاش أفراحه وعبر عن تطلعاته، أم كان مجرد مداح ومغن لا يحمل هدفا، ولا يعبر عن رسالة[27].» ومن هنا، وفي هذا الوضع العام للحياة وتنوعها، وجد الشاعر الشعبي «مناخا صالحا للتعبير عن عواطفه ووجدانه بلغة سهلة، وأسلوب بسيط لا يتطلب معرفة الكتابة وإتقان قواعد اللغة المعربة، التي تستدعي قدرا كافيا من التعليم والدراسة[28].» فنجح نجاحا يستدعي التقدير في تقليد كل أغراض الشعر العربي، وتمكن من طرق معظم الموضوعات التي طرقها شعراء الفصحى، بل زاد على ذلك الكثير سواء فيما يخص الأغراض والموضوعات، أو في مجال الأوزان والإيقاع والقوافي، وارتباط هذا كله بالموسيقى والغناء.

إن الحديث عن الفصحى والعامية في موضوع الشعر الشعبي، يستدعي الوقوف على المصطلح بتحديد دقيق، يتطلب النظر إليه من عدة زوايا، وذلك لما للشعر الشعبي من خصوصية تفرض هذا النوع من التعامل. فالألفاظ في الشعر الشعبي إما أن تكون عامية كلية لا نجد لها في العربية الفصحى أصلا. وإما أن تكون فصيحة بالوضع فقط دون الدلالة، أو بالوضع والدلالة معا. كما قد تكون ذات أصل عربي غير أنها أصيبت بشيء من التحريف على مستوى النطق السليم، أو على مستوى البناء الصحيح في ترتيب حروفها، أو على مستوى مختلف التعاملات الاشتقاقية في ميدان حقول الصرف.

وعليه كان التعامل مع هذا الصنف الأخير من الألفاظ، يحمل بطياته صعوبات جمة جعلت بعض الباحثين من أمثال محمود ذهني يقر بأن هذا النوع من الشعر «يمتاز بلغة معينة من الصعب وصفها أو تحليلها[29].»

V خاتمة:

لقد كانت القصيدة الشعبية مولودا جديدا في إطار العطاء والإبداع الفني وإضافة حسنة للأدب العربي أنجزت على أرض أصحابها وبقرائحهم وهي تحمل بصمة جيل جديد من العرب اجتمعت في عهده ظروف كثيرة كانت سببا في ميلاد هذا النوع من الشعر.

مثلت القصيدة الشعبية مرحلة هامة في تاريخ الشعر العربي عموما، كان لابد من الوصول إليها في اجتماع ظروف مناسبة توفرت فأدت إلى ظهور ذلك الإنجاز الذي لم يكن مقتصرا على العوام من الناس، بل لقد فرض سلطانه على الأدباء والشعراء، واستطاع أن يقتحم عليهم نواديهم، بل لقد تمكن من أن تكون له مواسم ومسابقات وأمسيات شعرية واحتفالات به وبمبدعيه. استطاع الشعر الشعبي أن يغوص في أعماق الحياة، وتمكن من رصد كل شيء سواء علا شأنه أو قل. فتناول عظائم الأمور في السياسة والحرب وأهم الأحداث والصراعات، كما تناول أبسطها كالأكل والبيع والشراء واللعب واللهو.

أعطى الشعر الشعبي هامشا كبيرا من الحرية للشعراء في مجال اللغة خاصة على المستوى النحوي وعلى مستوى القاموس المفرداتي وعلى مستوى البحور والإيقاعات وكذا على مستوى شكل القصيدة وبنائها.

المعجم اللغوي في الشعر الشعبي بسيط وطبيعي، فمفرداته إما أن تكون عامية كلية لا نجد لها في العربية الفصحى أصلا وإما أن تكون فصيحة بالوضع فقط دون الدلالة، أو بالوضع والدلالة معا. كما قد تكون ذات أصل عربي غير أنها أصيبت بشيء من التحريف على مستوى النطق السليم أو على مستوى البناء الصحيح في ترتيب حروفها أو على مستوى مختلف التعاملات الاشتقاقية في ميدان حقول الصرف.

الشعر الشعبي لم يكن أبدا مجرد نظم جاف لا حياة فيه، ولا ينبغي له ذلك، فهو أيضا يخاطب الوجدان البشري ويستثير خباياه بفضل مضمونه الشعري الذي تلون بألوان عاطفية ترتبط بالوجدان الإنساني فتحركه وتهزه وتؤثر فيه، وبفضل ذلك يستحق بجدارة أن يسمى شعرا، ذلك لأنه اعتمد معجما شعريا له من جذور لغة الماضي ولغة الحاضر الشعرية الكثير، فكانت وسيلته إلى تحقيق الشعرية الكلمة المختارة المنتقاة المختصة بمجال الشعر واستعمالاته.

وفي الأخير أقول أن القصيدة الشعبية جنس أدبي شعري يعكس عبقرية الذات العربية وقدرتها على التطور والتجديد في مواكبة واعية بتغيرات العصر وتقلبات أحوال أهله.

هوامش:

[1] عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967 ص 173.

[2] كمال النجمي: التعايش بين الشعر والزجل. كتاب الهلال، العدد 270، جمادى الأولى 1393، يونية1973، دار الهلال ص 13.

[3] محمد سعد فشوان: مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية 1986، ص 108.

[4] محمد سعد فشوان: مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية 1986، ص 108.

[5] نفس المرجع، ص 112.

[6] نفسه، ص 159.

[7] السحرتي: الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، طبعة المقطم، مصر، 1948 ص 57.

[8] عز الدين منصور: دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر العربي المعاصر، مؤسسة المعارف، بيروت ط 1985/1، ص 65.

[9] أ.أ. ريتشاردز، ترجمة مصطفى بدوي: العلم والشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، سلسلة الألف كتاب، ص 64.

[10] محمد سعد فشوان: مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، ص 129.

[11] شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى 1986، ص 55.

[12] شاعر مشهور من مدينة بشار.

[13] شاعر مشهور من مدينة العبادلة ولاية بشار.

[14] شاعر مشهور من مدينة البيض له حضور بارز في إذاعة البيض الجهوية.

[15] محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت 1973، ص 42.

[16] محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 48.

[17] الشاعرة جمعة لحسين من مواليد 1955، عاملة مهنية متقاعدة من التعليم ناشطة جمعوية بعنوان صدى المرأة للصناعة التقليدية وترقية الشباب تقطن بدائرة الشلالة ولاية البيض.

[18] سمير أبو حمدان: الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات دار عويدات، بيروت الطبعة الأولى 1991، ص 11.

[19] شايف عكاشة: نظرية الأدب في النقدين الجمالى والبنيوي، ديوان المطبوعات الجامعية 1994، ص 36.

[20] علي جواد الطاهر: مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1979، ص 33.

[21] محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، ص 48.

[22] الشاعرة جودي ذهيبة من مواليد 1974 تسكن ببلدية بريزينة ولاية البيض عضو سابق في بيت القصيد بولاية البيض حاصلة على الجائزة الأولى في مدح النبي (ص) على المستوى الوطني في ولاية غليزان إضافة إلى خنساء الجزائر بولاية الأغواط لها ديوان مخطوط بعنوان حصاد الصبر.

[23] محمد مبارك: مواقف في اللغة والفكر والأدب، مكتبة النهضة، بغداد 1974، ص 152.

[24] علي جواد الطاهر: مقدمة في النقد الأدبي، ص 485.

[25] محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث ص 108.

[26] التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990، ص 24.

[27] نفس المرجع، ص 42.

[28] نفسه، ص 29.

[29] العربي دحو: الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1988، ص 112. عن محمود ذهني: الأدب الشعبي العربي مفهومه ومضمونه، مطبوعات جامعة القاهرة 1972، ص 81.